المقالات الفلسفية لسينكا

بقلم : دكتور محمد سليم سالم

استهوى المذهب الرواقي من أقدم العصور عقول الرومان ، وصادف هوى في نفوسهم واتفق مع أخلاقهم وعاداتهم في السمو والتزمت. ولهذا درس الرواقية جمع غفير منهم كرياضة ذهنية ؛ وآمن بها وسار على هديها رجل مثل كاتو الأصغر الذي عاش في عصر سيشرون ؛ وتعمق في دراستها وشرحها سينكا الحكيم الذي ولد حوالي سنة ٤ قبل الميلاد في قرطبة ، أهم مدينة في مقاطعة بايتيكا Baetica من أعمال اسبانيا . وكانت بايتيكا أكثر مقاطعات أسبانيا حضارة وكانت أسبانيا من أقدم البلاد التي استعمرها الرومان .

كان لوكيوس آنايوس سينكا L. Annaeus Seneca الابن الثاني لسينكا الخطيب وكلمة الخطيب هنا استعملت في عين المعنى الذي يستعمل فيه في ذلك التعبير الذائع « عصا الخطيب من الجنة » أعني المدرس أو المربي . وقد ترك سينكا الأكبر كتابا حوى تعليقات على خطباء الرومان ومختارات من أقلامهم وقد افاد هذا المؤلف فائدة كبرى ولاسيما في تصحيح الرأي الذي نستقيه من كتابات سيشرون عن كالفوس ، وكان بين سيشرون وكالفوس عداء أدبي. فقد كان كالفوس يرأس مدرسة الاسكندرية في رومة ، وكان يرى أنه وأصحابه هم الذين يتبعون الأسلوب الأتيكي في النثر ، أما سيشرون ، في رأيهم ، فقد كان يتبع الأسلوب الآسيوي . ولكن سيشرون كان يؤمن بأنه الخطيب المثالي أو قد اقترب من الخطابة المثالية، أما كالفوس فقد فقد لكثرة الصقل اللحم والدم والعصب ولم يبق لخطبه غير الهيكل العظمي ، وأن الناس كانوا ينفضون من حوله اذا قام خطيبا .

وهذا طبعا غير صحيح ولم يتفق والصورة التي يرسمها لكالفوس كل من صديقه الشاعر كاتولس وسينكا الخطيب . فقد ذكر كاتولس في احدى المقطوعات أن رجلا ريفيا وقف يستمع الى كالفوس

وهو يشرح اتهامه لفاتينيوس فبهرته فصاحته ، فصاح قائلا : ياله من قزم فصيح ! وكان كالفوس قصير القامة ويذكر سينكا أن فاتينيوس هذا وقف مرة فى دار القضاء محتدا يقول للقضاة : أيحكم باداتنى لا لشىء الا لأن هذا الرجل فصيح ؟.

وولد سينكا الحكيم فى بيت علم وفضل . كان أبوه ، كمامر ، مربيا فاضلا ، وكانت أمه تميل الى الدراسات الفلسفية ، وكان ابن أخيه الشاعر لوكانوس الذى ابج ملحمة فارسليا Pharsalia عن الحرب التى شبت بين قيصر وبومبى .

حمل سينكا الحكيم كطفل صغير جدا الى رومة وكان أبوه وأمه قد سبقاه اليها وقد درس فى رومة أولا فى مدارس النحو. وقد تركت هذه المدارس فى نفسه كراهية للنقد اللفظى . ثم دخل بعد ذلك مدارس الريطوريقا ، وقد درس على أيدى أساتذة عظام مثل جاليو وموسيا ويوليوس باسوس ، وقد تركوا أثرا لا يمحى على عبقريته. ولكن حبه الحقيقى احتفظ به للفلسفة وللمذهب الرواقى على وجه التخصيص . وقد وقع تحت تأثير أبناء سيكستوس Sextus الثلاثة فعلمه سوتيون Sotion فلسفة فيثاغوراس ولهذا مال سينكا الى أن يكون نباتيا زاهدا ،أما أتالوس Attalus الرواقى فقد استهوى لب سينكا فجعله يسير بقية حياته طبقا لمبادىء الرواق من نبذ الخارجيات،وأما فابيانوس،وكان خطيبا مصقعا ميالا الى دراسة الفلسفة فقد بث فيه الكثير من حماسه وقوة روحه . فكان سينكا أول من يأتى الى المحاضرات وآخر من يغادرها

ولكن الامبراطور تيبريوس فى ذاك الوقت كان يحاول تطهير رومة من الأديان الأجنبية،فخشى سينكا الأكبر أن يوحد ابنه على أنه احد اتباع هذه الديانات الأجنبية . وكان عباد ازيس فى رومة يتميزون بالزهد والورع والامتناع عن أكل أنواع خاصة من الطعام . وقد أثار الامبراطور تيبريوس ضد عباد ازيس فى سنة ١٩ بعدالميلاد زيارة الأمير جيرمانيكوس مصر دون اذن واستقبال المصريين له استقبالا رائعا . وكان الامبراطور اغسطس قد حرم على أعضاء البيت المالك وأعضاء مجلس الشيوخ أن يدخلوا مصر دون اذن أو أن يقتنوا أرضا فيها . ونجح سينكا الأكبر فى اقناع ابنه بالاعتدال فى زهده ، كما حال دونه ودون الانتحار الذى داعب خيال سينكا الحكيم لمرضه وحزنه . والمذهب الرواقى يحرم الانتحار الا اذا آمن الرواقى أن كرامته الذاتية قد تمس أو أن القائد الأعظم يسمح له بأن يغادر هذا العالم فى هدوء كما دخله فى هدوء وقد يكون المرض وحالته النفسية من الأسباب التى حملته على السفر الى مصر وكانت احدى قريباته زوجة لأحد كبار الحكام . وقد ساعد جو مصر المعتدل وشمسها الساطعة وحسن رعاية قريبته له على تحسن صحته وصفاء نفسه ، فعاد الى رومة فى سنة ٣١ ميلادية ليحظى بوظيفة صراف Quaestor . وقد نشر كتابا فقد ولم يصل الينا ، عنوانه عن ديانة المصريين وطقوسهم المقدسة De ritu et sacris Aegyptiorum . وهو لا ريب موجز لملاحظاته أثناء وجوده فى مصر .

وفى رومة اشتغل بالمحاماة والمرافعة فى دور القضاء ونال شهرة عظيمة جرت عليه غضب الامبراطور جايوس كاليجولا الذى ولى العرش

بعد موت تيبريوس ، فقد نقم عليه ما أوتى من فصاحه وبلاغه ، وان سخر من اسلوبه بانه « رمل لم يخالطه جير » اشارة الى أن اسلوب سينكا الحكيم يعيبه التفكك ، كما اكثر كاليجولا من الاشارة الى خطب سينكا وكأنها مجرد تمرينات مدرسية . ولكن نجاته من بطش كاليجولا جاءت على لسان أحد المقربين الى الامبراطور الذى همس الى مولاه بأن سينكا لا محالة ميت من السلال .

ولكن حنينه الى الفلسفة لم يتركه . فألف فى ذاك الوقت كتابا عن حركة الأرضين De Motu Terrarum كما نشر مجموعة من خطبه واشعاره . ودبج كذلك سيرة والده الذى توفى سنة ٣٩ ميلادية . ومن الممكن ان مواساة ماركيا Consulotio ad Marcian قد كتبت فى ذاك الوقت . كما أن من الجائز أن سينكا كان يجمع مادة مقالاته عن الغضب Del ra اذ توجد اشارات مريرة الى الامبراطور كاليجولا فى هذه المقالات . وبعد مصرع كاليجولا وارتقاء كلوديوس عرش الامبراطورية ابتسم الحظ لسينكا وأضحى صاحب مركز مرموق فى حاشية الأميرتين يوليا ليفيلا Iulia Livilla وأجربينا ابنتى جرمانيكوس . ولكن ميسالينا زوج كلوديوس وقفت له بالمرصاد ووجد سينكا نفسه متهما بعلاقات شائنة مع يوليا ليفيلا كانت نتيجتها موت يوليا ليفيلا ومحاكمة سينكا والحكم عليه بالاعدام ولكن الامبراطور اكتفى بنفيه الى جزيرة كورسيكا .

وفى مواساته لوالدته Consolatio ad Helviam حاول سينكا أن يخفف من وقع هذه الكارثة على أمه قائلا ان النفى أمر محتمل يتوقف على نظرة الانسان اليه ، ولكن شعوره الحقيقى يظهر فى بعض الابجرامات التى كتبها فى ذاك الوقت وفى مواساته بوليبيوس Comsolatio ad Polybium التى ترجع الى عام ٤٣ بعد الميلاد ، وفى هذه الرسالة التى وجهها الى بوليبيوس ، وكان يشغل وظيفة كاتم سر الامبراطور لشئون الالتماسات a libellis وما يوجد فيها من ملق قصد به استعطاف الامبراطور حتى يأمر بعودته من منفاه . ولكنه لم يحظ بطائل . وقد بقى يعانى مرارة النفى تأتيه الأخبار بأن زوجه وطفله قد فارقا الحياة . ولكن الحظ ابتسم له مرة أخرى بعد مصرع ميسالينا وزواج الامبراطور كلوديوس من أجريبينا ، فعاد الى رومة فى عام ٤٩ ميلادية ووقع عليه الاختيار ليشغل منصب البريتور praetor وليكون مربيا لابن اجريبينا من زوجها السابق ، وهو الذى ذاع اسمه واشتهر بعد ارتقائه العرش وأعنى به نيرون . وبعد أن تخلصت أجريبينا من جميع المنافسين وتخلصت من كلوديوس نفسه بالسم ، ارتقى نيرون العرش وكان لا يزال صبيا . وكان من واجب سينكا أن يدبج له خطبة الرثاء التى يلقيها على سلفه . وقد ساعد سينكا فى حكم الامبراطورية مدة خمس سنوات quinquennium عم الرخاء والعدل فيها ربوع الامبراطورية . وقد انتقم سينكا لنفسه بعد موت كلوديوس فكتب هجائيته Satura خليطا من النثر والشعر عن موت كلوديوس وتحوله بعد موته الى قرعة عسل Apocolocyntosis . وقد بدأ هذه المقالة الساخرة بقوله : « انى أريد أن أسجل ما دار بالسماء فى الثالث عشر من شهر اكتوبر من هذا العام الجديد الذى هو بداية هذا العصر

السعيد . سأدون كل شيء دون حقد أو محاباة هذا هو الحق . فان تساءل أحد من أين أتيت بذلك ، فانى أرد بانى غير مجبر على الاجابة على هذا السؤال . فمن الذى سيجبرنى . لقد أصبحت حرا منذ اللحظة التى أنهت حياة ذاك الرجل الذى دلل على صحة المثل القائل : اما ن يولد الانسان ملكا أو مائقا . فان رغبت فى الاجابة على هذا السؤال فسأقول ما يرد على لسانى . من الذى طالب المؤرخين قط باستدعاء شهود . ولكن ان كانت هناك حاجة الى شاهد موثوق به فمن الممكن سؤال ملاحظ الطرق الذى رأى دروسيلا وهى تأخذ طريقها الى السماء ، فانه سيقرر أنه رأى كلوديوس يرقى الى السماء « بخطى غير متساوية » . فهو كملاحظ للطرق سواء رغب أم كره لابد له أن يرى كل شيء . فهو مراقب طريق أبيوس كلوديوس . ومن هناك سار اغسطس وتيبريوس الى السماء . اسأله فسيقص عليك كل شيء وأنتما وحيدان . اما أمام الناس فانه سيقفل فمه . لقد أقسم أمام مجلس الشيوخ أنه رأى دروسيلا وهى تصعد الى السماء ، ولكنه لم يحظ بشيء غير التكذيب . ومن ذاك اليوم أقسم أنه لن يقول شيئا عما يرى حتى ولو رأى رجلا يذبح فى السوق العامة » .

وكان هم سينكا وجهوده موجهة الى حماية الامبراطور الصغير من سلطان أمه الجارف الذى لا يعرف الحدود . وعلى الرغم من اعتراف سينكا بجميل أجريبنا ، الا أنه رأى أن الصالح العام يقضى بأن يحدمن تدخلها فى شئون الحكم . وقد أعلنت هى سخطها على حكم بوروس Burrus وسينكا ، وليس لأحدهما غير يد مشوهة وليس للآخر الا لسان حاد . وقد بلغ نفوذ سينكا السياسى فى تلك الفترة الذروة وكان من المحتوم أن تظهر آراؤه السمحة فى ادارة شئون الامبراطورية . وقد وجه الى نيرون وهو فى الثامنة عشرة رسالة عن العفو والصفح De Clementia . ويشهد المؤرخ اليونانى ديوكاسيوس — وهو يبغض عادة سينكا — أن النظام والعدالة قد عمت الامبراطورية فى تلك الفترة . ثم جاءت الفترة القاتمة التى رأت قتل بريتانيكوس ،وارث العرش الحقيقى بالسم على مائدة الامبراطور نفسه ، ثم مصرع أجريبنا بأمر من ابنها نفسه . واحتمل سينكا هذه المصائب فى صمت . وكان من الممكن الدفاع عن هاتين الجريمتين بالالتجاء الى نظرية السياسة العليا للدولة . فقد تخلص الامبراطور من منافس خطير يقض مضجعه ، وأبعد عن نفسه خطرا داهما ، كما أنه وضع حدا بقتل أمه لهذا التدخل السافر فى شئون الحكم . وقد دبج سينكا نفسه الرسالة التى بعث بها نيرون الى مجلس الشيوخ عن قتله أمه . وعندما أراد نيرون التخلص من زوجته أوكتافيا Octavia فى سنة ٦٢ بعد الميلاد ، حاول سينكا أن يرده عن عزمه . وقد رأى هذا العام مصرع بوروس Burrus رئيس الحرس الريتورى . ومنذ ذاك الوقت، بدأ النفور يدب بين الامبراطور ومعلمه .وعندما تبين سينكا أن نفوذه قد بدأ فى الضعف ، طلب الى الامبراطور أن يسمح له بالاعتزال . لقد جعله نفوذه كما جرت عليه أمواله الطائلة حسد الناس وحقدهم . وفى خطابه الذى ألقاه أمام الامبراطور عرض على نيرون أن يتنازل له عن جميع أمواله اذ أنها جاءت من فضله واليه

يجب أن تعود ، بعد أن أدرك الهرم سينكاودبت اليه الشيخوخة . ولكن نيرون رفض قبـول الأموال لأن ذلك سيثير القيل والقال ، وسينكا لم يبلغ السن الذى يصبح فيه من المعقول قبول اعتذاره ولكن سينكا كان اذكى من أن تخدعه هذه الألفاظ المنمقة.فأقفل بابه على نفسهوابتعد عن المحافل العامة وقضى ثلاث سنوات من ٦٢ الى ٦٥ فى التفكير والتأليف . ومن المؤكد انه كتب فى تلك الفترة مقاله عن الدعة De Otio ورسائله الاخلاقية Epistulae Morales وسبعة اسفار عن المسائل الطبيعية Quaestiones Naturales ،وفى سنة ٦٤ ميلادية عرض على نيرون مرة أخرى أن يتنازل له عن أمواله، ليصلح بها ما دمرت النيران من مدينة روما ، ولكن سينكا لم ينج من غضب نيرون . فقد اتهم بأنه اشترك فى مؤامرة پيسو Piso وصدر له الأمر السامى بالأنتحار . وقد أبدع المؤرخ الرومانى تاكيتوس ، الحوليات ، الكتاب الخامس عشر ، ٦٠ ــ ٦٤ ، فى وصف ساعاته الأخيرة :

« وجاء بعد ذلك تدمير أنايوس سينكا . وقد وجد الامبراطور فى ذلك بهجة لا تبارى ، لا لأنه ادانه بالاشتراك فى المؤامرة ، ولكنه كان يتوق الى أن ينفذ بالسيف مالم يستطع بالسم . والحق أن ناتاليس Natalis وحده هو الذى ذكر اسم سينكا وكان موجز أقواله انه أرسل الى سينكا ، وكان سينكا متوعكا ، ليزوره وليحمله على السماح لبيسو بزيارته وأن من الأفضل تبادل الزيارات حفاظا على المودة ، وقد أجاب سينكا أن تبادل الحديث بينهما وتكرار الزيارات ضار بكليهما ولكن سلامته تتوقف على سلامة بيسو . وصدر الأمر الى جافيوس سيلفانوس التريبون فى الحرس البريتورى بأن يذهب الى سينكا ويسأله عن صحة ما جاء على لسان ناتاليس وعن رده . وكان سينكا قد عاد من كامبانيا اما اتفاقا أو عمدا وأقام فى منزل ريفى على بعد أربعة أميال من رومة . ووصل التريبون فى المساء التالى،وأحاط المنزل بالجنود، وأبلغ سينكا برسالة الامبراطور ، وكان سينكا يتناول العشاء مع زوجه بومبيا بوليتا واثنين من أصدقائه .

وأجاب سينكا بأن ناتاليس جاءاليه وشكااليه باسم پيسو من رفضه رؤية بيسو وأنه اعتذر بسوء صحته ورغبته فى الراحة ، قائلا : « ليس هناك من مبرر يدعوه الى تفضيل صالح أى مواطن على سلامته الشخصية ، وأن طبيعته تأبى التملق . ونيرون أعلم الناس بذلك ، فقد عانى من حريته فى الحديث أكثر من خنوعه ».وعندما حمل التريبون هذا الرد الى الامبراطور ، وكان معه تيجيلينوس وبوبايا ، وهما مستشارا الامبراطور الموثوق بهما فى لحظة غضبه هذه، سأل نيرون : هل كان سينكا يفكر فى الانتحار؟ وجاء رد التريبون بأنه لم ير علامة على الخوف، وأنه لم يشعر بأى حزن فى ألفاظ سينكا أو فى نظراته . وعلى ذلك أمره الامبراطور ان يعود الى سينكا وأن يعلنه بحكم الاعدام . ويقول فابيوس روستيكوس Fabius Rusticus أن التريبون لم يعد من نفس الطريق ولكنه ذهب الى فاينوس Faenus رئيس الحرس وبعد أن شرح له أوامر الامبراطور سأله ان كان لابد من تنفيذ هذه الأوامر ،ولكن فاينوس نصحه بالطاعة ، لان الاتهام بالجبن القاتل قد شملهم

جميعا . لأن سيلفانوس نفسه كان أحد أعضاء المؤامرة ، وهو الآن يعاون فى ارتكاب تلك الجرائم التى كان قد انضم اليهم ليثأر لها. ولكن التريبيون تحاشى ألم كلمة أو نظرة تصدر من سينكا ، فأرسل اليه أحد صغار الضباط ليعلن اليه حتفه .

وقابل سينكا الخبر فى هدوء ، وطلب ألواحا ليكتب عليها وصيته . ولكن الضابط رفض طلبه. فاتجه الى أصدقائه محتجا بأنه منع من اسداء منفعة اليهم ، ولكنه يوصى لهم بالشيء الوحيد الذى بقى له ، وهو أثمن ما يملك ، ألا وهى سيرته فى حياته . فان هم ذكروا سيرته ، فسيحظون بالشهرة لأخلاقهم السامية وبالصداقة الدائمة . وفى نفس الوقت حثهم على ترك الدموع والعودة الى ضبط النفس متسائلا مرارا وتكرارا : أين المبادىء الفلسفية ؟ وأين الاعداد لاحتمال شرور المستقبل بدراسة الفلسفة تلك السنوات الطويلة ؟ ومن الذى يجهل قوة نيرون؟ فبعد أن قضى نيرون على أمه وأخيه ، لم يبق شيء غير أن يدمر وصيه ومربيه .

وبعد أن نطق بأمثال هذه الكلمات الموجهة الى الكل ، أحاط زوجته بذراعيه ، وترك جانبا الحزم القاسى الذى تفرضه الظروف ، فطلب اليها متضرعا أن تخفف عن نفسها عبء الحزن الدائم وأن تتحمل فقد زوجها وأن تتقبل المواساة النبيلة . وردت زوجته أنها قد عزمت على الموت وأنها تطالب أن تقع الضربة الأولى على رقبتها .

وبعد حديث قصير بينهما فتح كل من سينكا وزوجه شرايين ذراعيهما . ولما سال الدم ببطء من سينكا لضعف جسده فتح شرايين الساق والركبة ، وطلب الى زوجته أن تذهب الى غرفة آخرى خشية ان تؤثر عليه آلامها او ان تتالم لألمه ولكن نيرون الذى لم يكن يحقد على بولينا أمر بانقاذ حياتها . ولما رأى سينكا ان الموت لم يسرع اليه، طلب الى صديقه ستاتيوس انايوس أن يسقيه ذلك السم الذى يستخدم فى أثينه لاعدام من حكم عليهم بالموت. ولكن ذلك السم لم يؤثر فى جسده .وفى النهاية جلس فى ماء ساخن وأخذ يرش بالماء أقرب عبيده منه قائلا لهم : « انى أقدم هذا القربان الى جوبيتر المخلص » . ثم حمل بعد ذلك الى حمام فاختنق ببخاره . وعندئذ أحرق جسده دون أى طقس من الطقوس المعتادة، وكان قد أوصى بذلك فى وصية كتبها فى أيام ثرائه وسلطانه ، عندما كان يفكر فى نهاية حياته » .

وكانت حياة سينكا مزيجا من النبل الرواقى والاستكانة أمام جرائم نيرون كان يدعو الى احتقار المال ، ومع ذلك كان يستكثر منه .ولكن لا اساس على الاطلاق للاتهامات الأخلاقية التى وجهت اليه . ومع كثرة ماله ، فلم يهجر زهده وتقشفه . وحسبه نبلا أنه عاش فى عصر مترف وفى بلاط انحط الى الدرك الأسفل ، ولكنه نجا من كل هذا الدنس . وقد كتب مرة الى صديقه لوكيليوس الذى وجه اليه رسائله الأخلاقية يقول : « قبل الشيخوخة كنت أهدف الى أن أعيش عيشة طيبة ، أما وقد جاء الهرم فان هدفى هو الموت الحسن » .

نظم سينكا قصصا تراجيدية عن هرقل المجنون ونساء طروادة وميديا وهيبولتوس وأجاممنون وثيستيس وهرقل أوستايوس والفينيقيات . وتنسب اليه قصة أوكتافيا زوج نيرون . ولكن قصصه كتبت للقراءة لا للتمثيل ولذلك تظهر

عليها سمة من الريطورية التى طغت على التعليم كله فى ذاك العصر . وكانت القراءات العلنيـــة للخطب والقصص والأشعار على جمع قليـل من الأصدقاء هى العادة السائدة التى أودت فى النهاية بالبلاغة فى رومة .

وقد بقى لنا من مؤلفات سينكا الفلسفية الشىء الكثير فمن مقالاته الفلسفية التى ذاعت واشتهرت: عن الرعاية الربانية وعن ثبات الحـــكيم وعن الغضب وعن الحياة السعيدة وعن الدعـة وعن هدوء النفس وعن قصر الحياة .

ونحن نورد هنا نبذة كنموذج من تفكـــير سينكا نقتبسها من مقاله عن الحياة الســعيدة : « قد يقال : ولكنك تعنى بالفضيلة لا لشىء آخر غير أنك تؤمل أن تحظى ببعض اللذة منهـــا . ولكن ردى هو أن الفضيلة ، ولو أنه من المؤكد أنها تمنح اللذة ، ولكنا لا نطلبها لهذا السبب . فهى لا تمنح هذا الشىء فقط ، ولـــكنها تعطى شيئا آخر أعظم من ذلك ، وهى لا تجاهد لتمنح هذا الأمر ، ولكن جهودها ، مع أنها موجهة الى شىء آخر ، تحصل على ذلك . فكمـــا أن فى الحقول التى تحرث لتزرع حبـــوبا قـد تنبت الأزهار هنا وهناك ، ولكن ذاك الجهد الجهيـد لم يبذل من أجل تلك النباتات الصغيرة مع أنها تسر الناظرين ــ فلقد كان للزارع غرض مختلف ولكن تلك الزهور جاءت كشىء اضافى ــ فكذلك اللذة ، ليست هى الداعى الى الفضيلة ولا هى جزاء الفضيلة ، ولكنها نتاج اضـــافى . ونحن لا نتقبل الفضيلة لأنها تبعث البهجة الى نفوسنا ، ولـــكنا عنـــدما نحظى بها ، تبعث السرور الى نفوسنا . فالخير الأسمى هو فى اختيار الفضيلة وفى الميل الذهنى الكامل واذا ما اكمـل الذهن دورته وحض نفسه داخل حدوده ، فقد تم الخير الأسمى وكمل وليس هناك شىء آخر يمكن أن تتمنى . فليس هناك خارج الكل من شىء ، كما ليس هناك نقطة أخرى بعد النهاية . ولهذا فأنت تخطىء عندما تسألنى لم أسعى وراء الفضـــيلة ؟ فأنت تبحث عن شىء فوق القمة . أتسألنى ماذا أطلب فى الفضيلة ؟ انى أسعى وراءها نفســـها ، لأنها لا تمنح شيئا أفضل منها ــ فهى نفســـها جزاء نفسها . أو هل يتــراءى لك أن ذلك شىء بسيط جدا ؟ عندما أقول لك « ان الخير الأسمى هو قوة الذهن الذى لا يلين وبعد نظره وسموه وجودته وحريته وانسجامه وجماله » أتطلب منى شيئا أعظم من ذلك يمكن أن تنسب اليه كل هذه البركات ؟ ثم تذكر لى اللذة ؟ انى أطلب الخـــير الانســـــانى ، لا خير المعـــدة ــ فمعدة المواشى والحيوانات المتوحشة أكثر سعة .

••••••

انك تسأل : لم يعتنق امرؤ الفلســـفة ، ومع ذلك يعيش عيش الأثرياء ؟ لم يقول ان المال يجب أن يزدرى ، ومع ذلك يجمعه ؟ لم يقـــول ان الحياة يجب أن تحقر ، ومع ذلك فهو يعيش ؟ لم يقول ذلك عن الصحة ، ومع ذلك فهو يحـــافظ عليها بكل عناية ويفضل أن تكون صحته جيدة جدا ؟ ولم يظن أن النفى لفظ لا معنى له قائلا : أى شر فى تغيير الموطن ، ومع ذلك فان سمح له بقى فى وطنه الأصلى حتى الهرم ؟ لم يقـــرر أنه لا فرق بين حياة قصيرة وحياة طويلة ، ومع ذلك ــ ان لم يحل دون ذلك حائل ــ يطيل حيـــاته حتى يصل الى أرذل العمر ؟ انه يقول ان هـــذه الأشياء يجب أن تزدرى لا ليبعد نفســـه من الحصول عليها ، ولكن ليمنع نفســـه من القلق

فيما يمسها ؟ انه لا يطردها بعيدا عنه ، ولكن إن تركته ، فانه يصحبها الى الباب الخارجى دون أقل اهتمام . فأين تضع الهة الحظ أموالها فى اطمئنان أكثر من وضعها عند من يردها ثانيةدون احتجاج عندما تستعيدها ؟

كان ماركوس كاتو وهو يكيل الثناء لكوريوس وكورونكايوس وذاك العصر العتيق الذى كان مراقب الاحصاء فيه يعد اقتناء عدد قليل من النقود الفضية جريمة ، يملك أربعة ملايين من السيستر ، وهو مبلغ أقل دون ريب مما كان كراسوس يملك ، ولكنه أكثر مما كان لدى كاتو مراقب الاحصاء ••••• لأن الحكيم لا يرى أنه غير جدير بهبات اله الحظ.انهلايحب الأموال ، ولكنه يفضل أن يحظى بها . انه لا يسمح لها بالدخول الى قلبه ، بل الى داره . وهو لا يرفض الأموال التى لديه ، ولكنهيحتفظ بها ويرغب فى أن تمده بمادة أكبر فى ترويضه نفسه على الفضيلة .

•••••

هذا ما سيقول لك سقراط : هب أنىانتصرت على جميع أمم العالم ، هب أن عربة باكخوس بكل ما فيها من صنوف الترف قد حملتنى فى موكب النصر من مطلع الشمس حتى مدينة طيبة، هب أن ملوك الأرض يأتون الى طلبا للقوانين والشرائع ، فانىسأتذكر أنى بشر فىتلك اللحظة أكثر من أى وقت آخر عندما يبجلنى الناس من كل فج كاله . ثم من هذه القمم العالية ادفع بى الى أعمق فجوة ، بعد أن يتغير الحظ . ضعنى أسيرا لأزين موكبالنصر لقائد متعجرفمتوحش، فلن أطأطىء رأسى ذرة وأنا اساق أمام عربة رجل آخر أكثر منى وأنا أقف مرفوع الهامة فوق عربتى . وماذا تستنتج ؟ انى على أى حال أفضل أن أنتصر على أن أقهر . انى أحتقر كل ما تملك الهة الحظ ، ولكنى ان أعطيت الخيرة ، فسأختار أفضل ما تملك .

•••••

ستقول : وما الفرق بينك أيها الحكيم وبين الرجل الغبى اذا كان كل منكما يرغب فى الثراء ؟ هناك بون شاسع.فالمال فى نظر الحكماء عبد ، وفى نظر الأغبياء سيد . فالحكيم لا يعطى المال أهمية ، أما أنت فالمال كل شىء عندك.انك تعتاد الثراء وتتعلق به ، كأن أحدا اكد لك أنه سيصير ملكا خالدا لك ، ولكن الحكيم لا يفكر على الاطلاق فى الفقر كما يفكر وهو يعيش وسط الثراء العريض . لا يثق قائد قط فى السلم ثقة عمياء دون أن يستعد للحرب كأنها قائمة على قدم وساق ، وان لم تكن قد أعلنت بعد . أما أنت فدار جميلة تحفزك الى الزهو ، كأن من المحال أن تحترق أو تسقط . ان مالك قد أذهلك ، كأنه نجا من كل خطر ، وكأنه أصبح من الكثرة بحيث لا تقوى الهة الحظ على تدميره . انك تلهوبمالك ولا ترى الخطر الذى تعيش فيه ـــ فأنتكالبرابرة الذين اذا ما حوصروا وهم لا يعرفون شيئا عن آلات الحرب ينظرون فى غير اكتراث الى مايبذل المحاصرون من جهد ، ولا يدركون القصد مما يشيد بعيدا عنهم . فكذلك أنت ، ترتع وسط أموالك ولا تلتفت الى الأخطاء الكثيرة التى تحدوك من كل جانب وفى سرعة مذهلة تذهب بأسلابك الثمينة . ولكن من يسلب الحكيم ماله،

سيترك له حتما جميع ما يملك . لأنه يحيا سعيدا فى الحال غير مكترث بالمستقبل .

وفى مقالهمن الغضب Delra ، يضرب سينكا مثلا بأحد قواد الرومان القساة .خرج من معسكره جنديان معا ، وعاد أحدهما ولم يعد الآخر . فأمر باعدام الجندى الذى رجع الى المعسكر متهماإياه بقتل زميله دونأن يقوم على ذلك دليل.وأمر أحد صغار الضباط بتنفيذ حكم الاعدام . وفى اللحظة التى قدم فيها الجندى للقتل ، ظهر زميله الغائب . فعاد الضابط ومعه الجنديان ليزف الى قائده هذا الخبر السار . فأمر القائد باعدام الثلاثة : الأول لأنه سبق ان أصدر حكما باعدامه ، أما الثانى فلانه كان السبب فى اصداره لذلك الحكم ، أما الضابط فلانه لم ينفذ أمره .

وفى رسائله الأخلاقية التى وجهها الى صديقه لوكيليوس ، نجد أن سينكا يتحدث الى صديقه عن موضوع أشار اليه الكثيرون فى العالم القديم ألا وهو محاولة الهرب من الملل والقلق بالتنقل والأسفار . يقولسينكافى الرسالةالثامنةوالعشرين من الكتاب الأول .

« أتظن أن هذا حدث لك وحدك ؟ هلتعجب من ذلك كأنه أمر جديد غريب ، أعنى أنك لمتستطع التخلص من أحزانك وثقل الهموم على نفسك بعد رحلة طويلة وتغيير كبير للمناظر ؟ انك فىحاجة الى تغيير نفسك لا الى تغيير المناخ . فعلى الرغم من عبورك مسافات شاسعة من البحار . وعلى الرغم من ــ كما يقول شاعرنا العظيم فرجيل ــ من أنك رأيت الأراضى والمدائن تتوارى خلف ظهرك ، فان أخطاءك ستتبعك الى أى مكان ، لقد أبدى سقراط الملاحظة نفسها عندما شكا اليه أمرؤ ما عين الشكوى : لم تعجب أن ترحالك لم يفدك وأنت تأخذ دائما نفسك معك ؟ ان العلة التى تحفزك الى التجول لا تفارقك ..فما فائدةرؤياك للمدنالجديدة ، وماذا يجدى النظر الى البلدان والأماكن التى تثير الاهتمام ؟ ستذهب كلتلك الجلبة سدى . أتسأل لم لا يعنيك مثل هذا الهرب ، لانك تهرب مع نفسك .لابد أولا من التخلص من وزرك الذى أثقل ظهرك . فان لم تفعل ، فلن ترضى عن أى مكان.ان سلوكك الآن يشبهمسلك الكاهنة التى يصف فرجيل . انها هائجة مضطربة وقد استولى عليهاوحى قوى غريب :

فهى تهذى كأنها احدى عابدات باكخوس
محاولة القاء الاله العظيم بعيدا عنها

انك تتجول هنا وهناك لتخلص نفسك مما أثقلها على الرغم من أن عبئك يزداد ثقلا كلما تحركت ، كحمولة السفينةان بقيت ساكنة فلا ضرر منها ، وان تدحرجت هناك وهنا على غير هدى تأرجحت السفينة وأشرفت على الغرق.فمهما تفعل ضار بك . وهذا القلق نفسه مضر بك ، فأنت تهز مريضا .

ولكن ألق بهذا الشر بعيدا عنك . يصبح كل تغيير فى المناظر لذيذا . ولو انك أبعدت الى آخر العالم . فى أى مكان متوحش من أركان البسيطة وجدت نفسك ، فهذا المكان مهما كان موحشا فهو مقام كريم . أنت نفسك أهم بكثير من أى مكان تأتى اليه . ولهذا السبب يجب ألا تسمح لأىمكان باستعباد عقلك . عش مؤمنا بهذه الفكرة : انى لم أولد لأى جزء من هذا الكون . فهذا العالم كله وطنى . فان لم تتضح لعينيك هذه الحقيقة ، فلا غرابة ان لم تحظ بفائدة من المناظر الجديدة . عندما تطوف فى الآفاق ، وقد أصابك الملال من

المناظر القديمة . كان من الجائز أن المناظر الجديدة فى كل مرة تشرح صدرك ، لو أنك آمنت بأنها كلها وطن لك. ولكن الحقيقة أنك لم تزر أقطارا جديدة ولكنك تطوف فى الآفاق ، تحل فى مكان لترحل منه دون هدف ، على الرغم من أن تطلب ــ وهو الحياة السعيدة ــ موجود فى كل مكان . أهناك مكان يموج بالناس كسوق رومة ؟ انك تستطيع أن تحيا فى هدوء فيه ، ان دعت الضرورة . ومن الطبيعى أنه ان سمح للانسان أن يدبر أموره ، فانى أهرب من رؤية السوق ومجاورتها . فكما أن الأماكن الموبوءة ، تضنى أقوى الأبدان ، فكذلك هناك أماكن لا تلائم العقول السليمة ، ان لم يكن العقل صحيحا معافى وان كان يتماثل للشفاء. ولهذا فانى لا أرضى عن أولئك الذين يضربون فى البحر وسط الأمواج الهائجة ، ومقبلون على حياة صاخبة ويصارعون مشاكل الحياة بجنان ثابت . فالحكيم يحتمل كل ذلك ، ولكنه لا يختاره ــ انه يفضل أن يعيش فى سلم لا فى حرب . فمن العبث أن يلقى المرء بأخطائه ، ليناضل ضد عيوب الآخرين . رب قائل يقول : كان هناك ثلاثون طاغية يحيطون بسقراط ولكنهم لم يستطيعوا تحطيم روحه . ولكن هل لكثرة عدد السادة من قيمة ؟ ليس للرق جمع . وكل من ازدرى العبودية فهو حر. اذ لا أهمية للجماهير الغفيرة من السادة الذين يقف المرء بينهم .

لقد جاء الوقت الذى يجب فيه أن أنهى رسالتى، ولكن بعد دفع المكوس الواجبة . « الاعتراف بالاثم أول مراتب الخلاص » . هذا قول نبيل من أقوال أبيقور . لأن من لا يعترف بخطئه ، ليست لديه رغبة فى أن يعرف الصواب . يجب أن يدرك المرء أولا أنه أخطأ ، قبل أن يستطيع اصلاح عيبه. هنا كمن يفاخر بأغلاطه . أتظن أن لدى هذا الرجل فكرة فى اصلاح عيوبه وهو يعدد أخطاءه وكأنها فضائل ؟ لهذا حاول على قدر المستطاع أن تدلل على خطئك . وابحث عن اتهام لنفسك . وقم أولا بدور الاتهام ثم بدور القاضى وأخيرا بدور الشفيع . بل كن قاسيا على نفسك فى بعض الأحيان .

وفى الرسالة السادسة والتسعين من الكتاب الثالث يقول سينكا :

ومع كل أأنت تشكو وتتضجر،وأنت لا تدرى أن فى جميع تلك الشرور التى ذكرت ليس هناك الا شىء حقيقى واحد وهو أنك تشكو وتتضجر؟ فان سألتنى ، فانى أظن أنه لا يوجد شقاء للانسان الا اذا كان هناك شىء فى هذا العالم يظنه داعيا الى الشقاء . ولكنى لن أجر نفسى فى عين اليوم الذى أجد أن هناك شيئا لا يحتمل .

ان صحتى منحرفة ، ولكن ذلك جزء مما قدر عليك . لقد أصاب المرض عبيدى ، ونقصت أرباحى ، واختلت دارى ، وانتابتنى الخسائر والحوادث والجهد والخوف ؛ ولكن هذه أشياء عادية ، بل الأحرى أن يقال : ان هذا قدر مقدور . فان صدقتنى ، فانى أكشف لك عن شعورى الخفى : ان تراءت الأحوال صعبة متعبة، فقد دربت نفسى لا على طاعة الاله فحسب ،ولكن على الرضا بقضائه . وأنا اتبعه لأن روحى تريد ذلك ، لا لأن واجبى يقضى بذلك ، ولن يصيبنى شىء اتلقاه بحزن أو وجه عبوس . فلن أدفع جزية رغم أنفى . فكل الأشياء التى تجعلنا نخاف أو تتألم ، هى جزء من ضريبة الحياة . وهى أمور ،

يا عزيزى لوكيليوس ، لا تؤمل أو تحاول أن تفر منها .

لقد أفزعك ألم المثانة ، وجاءت رسائلك حزينة تدل على أن مرضك يزداد كل يوم ، وان شئت أن أقول الحق فقد كنت تخشى على حياتك . ولكن هل كنت تجهل وأنت ترجو أن تعمر أناك تطلب ذلك ؟ فالعمر المديد يحوى كل ذلك ، كما تشمل الرحلة الطويلة الغبار والتراب والمطر . ولكنك قد تصيح : كنت أرغب فى أن أعيش ولكن بعيدا عن كل هذه الشرور . هذه الصيحة جديرة بالنساء لا بالرجال . فكر بأى روح تتقبل هذا الدعاء ، وانى أقدمه لا بروح طيبة فقط ولكن بروح نبيلة « انى أدعو الآلهة والالهات على السواء ألا تديم الهة الحظ ترفك » اسأل نفسك ماذا تختار ان منحك اله ما حرية الاختيار ـ الحياة فى فندق أم فى معسكر .

ومع ذلك ، يا لوكيليوس ، الحياة فى الحقيقة معركة . ولهذا السبب أولئك الذين تتقاذفهم الأمواج أو يصعدون الى قمم الجبال ويهبطون منها،وينضمون الى الحملات الحربية ويتعرضون لأعظم الأخطار يدعون بالابطال ورؤساء المحاربين، ولكن من يعيشون فى الترف والدعة ، بينما يكد الآخرون ، يسمون باليمام سوى أنهم محقرون .

ومن الأبيات الطريفة التى سارت على ألسنة الناس والتى وردت فى قصصه :

قد يكون فى التأنى شفاء مالا يستطيع العقل شفاءه .

متى أخطأ العقل ، فمن الأفضل السير فى اثر الاتفاق .

لا يقبل العرش أو سرير العرش شريكا .

الرغبة فى الشفاء نصف الصحة .

الألم الخفيف فصيح ، أما العميق فصامت .

وتظهر مقدرة سينكا الدراماتيكية فى المناقشات السريعة كالمناقشة التى تدور بين ميديا ومربيتها :

ميديا : يخشى الحظ الشجاع ولكنه يقضى على الجبان .

المربية : الشجاعة التى تجد الوقت المناسب لابد أن تحظى بالثناء .

ميديا : تستطيع الشجاعة دائما ان تجد وقتها المناسب .

المربية : ليس هناك أمل ينير السبيل الى قضية خاسرة .

ميديا : اذا لم يكن هناك أمل ، فليس هناك يأس .

المربية : ليس لك من أحبة فى كولخيس وزوجك خائن فلم يبق لك من مقومات القوة شىء .

ميديا : ميديا نفسها لا تزال باقية ، وفيها البر والبحر والسيف والنار والالهة وصواعقها .

المربية : اياك والملك .

ميديا : كان أبى ملكا .

المربية : ألا تخافين من الأسلحة ؟

ميديا : لا ، ولو نبتت من الأرض .

المربية : انه الموت .

ميديا : انى أتوق اليه .

المربية : أهربى .

ميديا : لقد طلقت الهرب .

أما الأبيات التالية فلو وردت على لسان عراف لضمنت له التصديق التام :

فى آخر الزمان سيأتى عصر .

يُكشف له البحر جميع روابط الأشياء .

وتصبح الأرض وكأنها مساحات شاسعة منبسطة.

ويجب على تيثيس Tethys أن تكشف عن مدن جديدة .

ولن تبقى ثولى Thule آخر العالم .